

النظام الغذائي زمن المجاعات والأوبئة

الدكتور/ بالأعرج عبد الرحمن
جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان
الجزائر.
dr.bellaredj@gmail.com

الطالب/ عباس رشيد
جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس
الجزائر.
26.1975aq@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019-02-03 تاريخ القبول: 2019-02-09 تاريخ النشر: 2019-03-18

Abstract :

The Islamic Maghreb has witnessed climate variability and periods of hard rought through its history , which led to infertility and famines either extensive or specific to certain regions . The degree of danger threatening people varies especially if it was followed by plague in addition to the political conflicts which marked that period .

The outcomes drawn after this crisis such as alimentation deficiency and famines created a disorder in the population 's health system which led to bad and unhealthy acts and habits .

In front of this situation , a new alimentary system was introduced to the Islamic Maghreb in order to help people overcome this crisis by exploiting their environment .

ملخص

عرف المغرب الإسلامي طيلة فتراته التاريخية تقلبات مناخية ومراحل جفاف قاسية نجم عنها قحط ومجاعات إما أن تكون عامة أو تحض مناطق معينة. وتتفاوت درجة خطورتها

على السكان خاصة إذا أتبعها الوباء والطاعون زد على ذلك الحروب والصراعات السياسية التي كان لها نصيب في الأزمات.

والمشكلة الناجمة عن كل هذه الخن قلة الغذاء والطعام الذي هو عصب الحياة وقوامها، فندرته تصيب النظام الغذائي للسكان وتنجم عنه سلوكيات كانت إلى وقت قريب غريبة وشاذة يتعفف عنها الناس.

أمام هذا الوضع يبدأ بتشكل لدى غالبية المناطق في بلاد المغرب الإسلامي المصابة بالكوارث نظام وسلوك غذائي جديد هدفه مساعدة الناس لاجتياز المحنة، وذلك باستغلال البيئة المحيطة بهم وهنا تتجسد لدى العامة طرق مختلفة في البحث عن الطعام والغذاء وتكييفه قدر المستطاع ليصبح سائغا للأكل.

الكلمات المفتاحية: المغرب الإسلامي، نظام الغذاء، الجماعات، القحط، الوباء.

مقدمة

لقد تركزت جهود معظم المؤرخين في مواكبة التاريخ السياسي للدول التي قامت في ربوع بلاد المغرب الإسلامي و هذا ما عكسته مختلف الكتابات ومؤلفات والمصادر التي أرخت لمختلف الحقب الزمنية التي عاصرها هؤلاء المؤرخون، أو ما جادت به قريحتهم التاريخ حول تاريخ تلك الدول.

لكننا لا نقلل من تلك المجهودات الجبارة التي بذلوها والتي مكنت من حفظ الكثير من تاريخ الأمة الإسلامية، وإن كانت جل اهتمامهم انصبت على الواقع السياسي على حساب الواقع الاقتصادي والاجتماعي بشكل متفاوت.

ولعل العلامة والمؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون (732هـ - 808هـ) قد أدرك تلك الحقيقة وتفطن إلى أهمية التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للأمم وصب حل اهتمامه لدراسته. وأنشئ أرضيته و أرسى قواعده، ومع تطور علم التاريخ في العصر الحديث تبته المؤرخون إلى الجانب الاجتماعي وضرورة البحث فيه، ولهذا بدأت دراسات في هذا المجال التي تخص بلاد المغرب الإسلامي بوجه عام تخرج للعلن معلنة عن طفرة جديدة في هذا التخصص من البحوث. كما أن الطريق لا يزال طويلا لدراسة هذا الجانب وتسييل الضوء على زواياه المظلمة، مع العلم أن مادته العلمية لا تزال خاما يعلوها الغبار وتخفي أكثر مما تم التوصل إليه.

والدراسة التي بين أيدينا موسومة بـ **النظام الغذائي زمن الجماعات والأوبئة**. وهي فصل من أطروحة نسعى للبحث في جوانبها والموسومة بـ **النظام الغذائي بالمغرب الإسلامي من القرن السادس الهجري إلى القرن التاسع الهجري (12م- 15م)** ومن عنوان الأطروحة نستشف الإطار الزماني والمكاني التي تغطيها الدراسة، فالمكان المنطقية الجغرافية المعروفة تاريخيا بالمغرب الإسلامي والحدودة زمانا ما بين القرن السادس هجري إلى القرن التاسع هجري (12م- 15م).

ولتكون الدراسة سليمة في جوهرها، وقاعدة انطلاقتها مبنية على حقائق علمية يتقبلها العقل، كان لزاما علينا طرح عدة تساؤلات التي توفر لنا إجابات واضحة ومحددة أهمها :

- ما مدى التحول في السلوك الغذائي لدى سكان المغرب الإسلامي زمن الأوبئة والجماعات؟ وما هو النظام الغذائي الذي أفرزته فترات الأوبئة والجماعات في بلاد المغرب الإسلامي؟

إن زمن الأوبئة والجماعات كثيرا ما كان يحل ببلاد المغرب الإسلامي فإرضاء على سكانه سلوكا ونظاما معينين من الأغذية لم يألفوه زمن الرخاء و السعة، كان له الأثر الكبير في

إنقاذ نفوس كثيرة أتعبتها تلك الفترات القاسية، ولعل المتنفس الوحيد والبديل كان توجهه والاعتماد على ما تجود به بيئة بلاد المغرب الإسلامي في البر والبحر ومن أبرز تلك سلوكيات والتحويلات.

أولاً: استهلاك الأطعمة قبل أوانها وظاهرة الاستدانة

إن استهلاك الأطعمة وتناولها قبل أوان قطافها خاصة تلك التي تتأثر بأدى تغير في حالة الطقس الذي ينذر بالجفاف، كان أمراً استباقياً لاستهلاكها من قبل السكان تفادياً لأزمة الجوع وخطر المجاعة، ومن جهة أخرى ضمان المنتج وعدم ضياعه، بعد أن استفادت تلك المحاصيل من فترات انتعاش وغيث سمح لها بالوصول لدرجة النماء وإعطاء الثمار، إلا أن مداومة الجفاف عطل نموها الطبيعي وعجل قطافها واستهلاكها قبل الزمن المألوف لنضوج.

إن ظاهرة استهلاك الأطعمة قبل أوانها لا تخص منطقة بعينها، فهي مربوطة بمدى التغيرات المناخية التي تدفع الناس إلى انتهاج هذا السلوك، فمن خلال كتب النوازل التي وصلتنا يشير أبو العباس الونشريسي إلى "دافع الحاجة التي تدفع بمن يملك الزرع الأخضر فيأكل منه شيئاً قبل يسه"، فالنازلة تشير بوضوح إلى دافع الحاجة المتمثلة في الجوع الذي اضطر صاحبه لأكل الزرع قبل أوانه المعلوم والزمن المألوف¹. وفي نازلة أخرى سئل الشيخ الفقيه علي بن محسود "عن الزرع أخضر وفول أخضر يحتاج الناس إلى سلفه أي (إعارته)". فأجاب السائل بقوله:

"ذلك جائز في وقت الحاجة وشدة المجاعة، لما فيه من إحياء لنفوس"².

لقد أفصحت هذه النوازل عن جانب من الحياة القاسية وشدة الجوع الذي فرض سلوكاً ونمطاً معيناً من الغذاء على سكان المغرب الإسلامي وهو استئفاء الغذاء وتحصيله قبل

أوانه المعتاد. إلا أن الكوارث والمجاعات والأوبئة التي أضرت باقتصاديات منطقة وحدثت من نشاط التجاري والمبادلات بين الناس، وارتفاع الأسعار وقلة الغذاء زادت الأوضاع سوءاً، الأمر الذي دفع بهم لتدائن فيما بينهم لتزود بالميرة ودفع الجوع عن عوائلهم، وهذا أمر ليس بجديد على المنطقة في قضية البيوع بالسلف إلى أجل مسمى، غير أن الظاهرة تزداد وتيرتها إبان المسغبات والمجاعات، كحل أخير لتصريف أمور حياتهم³.

إلا أن ظاهرة لم تخلوا من مشاكل بين الدائن والمستدين، فمن النوازل التي أوردها الشيخ أبو زكريا المازوني ما سؤل عنه الشيخ الفقيه "عبد الرحمن الوغليسي" قائلاً: "عمن ألبأتها الضرورة لسلف القمح والشعير من موضع، ويعطي لصاحبه عوضاً منه من موضع يليه هو أيضاً، وحاجة ألبأتها في مسغبة وقعت بالجميع، وما الحكم إن احتاج المدفوع له ولم يحتج الدافع، فأجاب: لا يجوز اشتراط ذلك أو التفهم عليه لأنه من الربا وإن يسلفه كما سلف الناس جاز أن يعطيه بغير موضع قبضه"⁴. و سئل نفس الشيخ حول نفس الظاهرة "هل يجوز سلف المبلول من الحنطة بعد ييسه أو لا يجوز؟ وإن ألبأت الضرورة إليه لأجل غلاء السعر. فأجاب: يجوز ذلك لمن لا شرط له، ولا يجب عليه إلا مثل ما أخذ لأن الاشتراط في سلف الممتنع"⁵.

وفي نفس السياق سئل الشيخ الفقيه "أبو القاسم البرزلي": "هل يباح في مثل هذه البضاعة الفادحة الواقعة عندنا بالمغرب في هذه السنة سلف الزرع المبلول أو الفاسد ليأخذ صحيحاً لما في ذلك إحياء النفوس؟"⁶.

كما أن الضرورة والحاجة التي تدفع بالناس للحصول على غذائهم زمن المجاعات والأوبئة، دفعت بهم إلى حد بيع ممتلكاتهم ورهنها كضمان مقابل الحصول على ما يسدون به غائلة الجوع، وهذا ما أوردته بعض نوازل أبو العباس الونشريسي يمكن العودة إليها والإطلاع عليها.⁷

لقد دفع الجوع والعوز فئات كبيرة من الناس من خلال هذه النوازل إلى التخلي عن ممتلكاتهم إما بعدم القدرة على السداد ما عليهم، وإما استيلاء الدائن على تلك الرهانات مقابل ما يستحقه على المدين، وكلها حالات تخلق مشاكل اجتماعية خطيرة على الاستقرار.

ثانيا: بدائل الخبز والبحث عن الغذاء في البراري

كان الخبز ولا يزال المادة الأولى الأوسع استهلاكاً في منطقة المغرب الإسلامي قاطبة زمن الرخاء الاقتصادي وكذا زمن الأوبئة والمجاعات وحتى زمن الحروب⁸، لقد كانت هذه المادة من أعز ما يطاب في الشدائد، فهي سريعة الاحتفاء من موائد الطعام لعامة الناس، وذلك راجع لغلاء أسعار الحبوب واحتكارها، أو تقنين وترشيد استهلاكها من طرف الحكام وسلطين⁹.

وأمام هذا المشكل الخطير الذي يهدد الناس في أحد أهم نظمهم الغذائية الأساسية، سارع بعضهم للبحث عن بدائل للخبز، وذلك من مواد نباتية تنمو في البراري فكانت الحنطة البديلة تستخلص من النباتات والحشائش والبدور التي تزخر بها منطقة المغرب الإسلامي وتكيفها وفق نمط غذاء الأهالي المعتاد، ومن المعلوم أن هذه النباتات تعد من أهم النباتات المشكل للغذاء النباتي في بلاد المغرب الإسلامي ككل¹⁰، إن الحاجة لرغيف الخبز دفع الناس

لتعامل مع النباتات البرية والاستفادة من حنطتها، وهذا الأمر ليس وليد منطقة بعينها أو الصدفة الآتية وإنما هي نتيجة موروث ثقافي ضارب في عمق التاريخ بلاد المغرب الإسلامي¹¹.

يعد التوصل لبديل الحنطة لصناعة بديل الخبز من الأمور رائعة التي سدت الأفواه الجائعة والتقليل من مخاطر المجاعات إلى حد ما، ولعل من أهم نباتات التي استعملت في استخلاص الحنطة المطلوبة نجد ثمرة شجرة البلوط البرية¹² التي قامت بدور كبير في التخفيف من حدة القحط والمجاعات في بلاد المغرب الإسلامي، يعتمد ناس إلى إلتقاط هذه الثمار في زمن المسغبة إن وجدت، لتسحق ويتم الحصول على حنطة بيضاء لون، وبعد ذلك تعالج بإضافة بعض النباتات الأخرى قصد تماسك العجين وإعطائه بعض النكهات فتخلط وتعجن وتصنع أقراص خبز و يطهى في التنور¹³.

وتعد الجبال المحيطة بتلمسان أحد مواطن شجر الخروب¹⁴ مثل جبل بني يزناسن وجبل مطغرة وجبل ولهاصة، فقد إعتبرها سكان تلك المناطق كأحد الموارد نظم الغذائية لديهم زمن الشدة والرخاء، وهذا راجع لقلة القمح والشعير لديهم¹⁵.

لقد وجد سكان المغرب الإسلامي في ثمار النبق وسيلة لإستخلاص حنطتها والتغذي بجزءها زمن المجاعات الكبرى¹⁶. كما أنهم استغلوا نبات الشيلم فيصنع منه الخبز حين يطحن ثم يعتصد¹⁷ وعُدّ غذاء أثبت نجاحه في مساعدة السواد الأعظم من الجوعى زمن المجاعات.

كما تم استغلال بذور نبات **نبت الطهف**¹⁸ تستخلص حنطته من البذور بعد سحقها، ثم يجهز منها أرغفة الخبز تسد الجوع ، وكانت عوناً للناس لاحتياز أيام القحط والجوع¹⁹.

كما أستغلت بذور نبات **القيسطة** ليستخلص منها طحين يخبز على شكل أرغفة كثيراً ما تم أكلها لإبعاد آلام الجوع المضي²⁰. كذلك كان نبات **الدخن**²¹ حاضراً بقوة لدى الكثيرين فيتم مزجه مع بذور العنب إن وجدت، ونتيجة حنطة سوداء اللون تخبز خبزاً أسوداً ذو رائحة كريهة شنيعة، وفوق كل هذا فإن الجوعى مضطرين لأكله زمن القحط والمجاعة²².

كما استعملت بذور **نبات بقلة دعاع**²³ ، ونبات استب في سنين المجاعة كان الخبز والعصيدة المصنوع منهما طعام الكثيرين²⁴. وأستخرجت الحنطة أيضاً من نبت **التابودا** وصنعت منها أرغفة خبز سيئة المذاق²⁵.

يعد الغذاء القائم على الاقتصاد البدائي أي البحث والالتقاط والقطف في البراري²⁶، وصيد وكنص الطرائد، من أهم السبل في توفير الطعام زمن القحط فهو شكل من أشكال الحضارة البدائية²⁷. وحول هذه الظاهرة تمدنا كتابات ابن الزيات بنماذج تبقى شاهدة حول هذه طريقة في البحث الغذاء، فهذا الشيخ " **أبي المهدي وين السلامة**: (ت:

560هـ/1165م)، إذا ما حل بجيه القحط شديد، خرجوا بحثاً عن النبات التي اعتادوا على أكلها في سنوات المجاعة²⁸. أما الشيخ "أبو علي الرجراجيت: (ت: **612 هـ**) كان يبحث عن سد جوعه بتجفيفه أوراق الشجر ثم يسحقها ليأكلها²⁹، إن تناول النباتات البرية تحت إكراه الظروف القاسية لا يخلوا من مخاطر السموم التي تحويها تلك نباتات مثل نبات **عقار** الذي قتل العديد من الناس في سنين الجوع³⁰. أما **عجوة** وهي أمر التمر فكانت غذاء

ومنحاة زمن المجاعات³¹. وفي ظل الاضطرابات السياسية خرج الأمير أبو إسحاق من تونس سنة 680هـ في جيش عظيم في ظروف سياسية صعبة وصراع على الحكم، انتهى به المطاف عند أسوار قسنطينة وجيشه مهلهل والجوع ينهش بطونهم، وأمام فشلهم دخول المدينة حين أقفل صاحبها أبوابها في وجههم، لكنه أمدهم بالتمر " فأكلوا أكل الجائع"³². أما نبات فتور الزيتون و نبات النارج³³، فالأول لجأ إليه الضعفاء زمن الجوع أما الثاني فعد فاكهة زمن المسغبات والمجاعات بغض النظر عن مذاقه الحلو أو الحامض³⁴.

ثالثا: التحول من القنص البري نحو الصيد البحري

ليس بالأمر الغريب نشاط صيد السمك وحيثان في بلاد المغرب الإسلامي بل يعتبر مصدر رزق للكثير من العوام القاطنين قرب الشواطئ والخلجان والأثمار وهو واحد من أهم نظمهم الغذائية³⁵، وبشكل متفاوت حسب العادات والتقاليد الاستهلاكية لكل منطقة، فمنهم من يعتبر الأسماك غذاء مكمل، ومنهم من يجعله الطبق المفضل الذي لا يغيب عن مائدته، حتى أن البعض ذهب إلى تصنيف غذاء السمك غذاء السواد الأعظم من الفقراء والمساكين وحتى الأغنياء في بعض المدن الساحلية إلى جانب الشعير والبصل، ولكنرة تناول طبق السردين في تلك المناطق أصبحت جدران البيوت والأزقة تصدر عنها رائحته المشبعة به³⁶. إن نظام التغذية السمكية زمن المجاعات التي عصفت بالمنطقة لم تتأثر، ففي سنة 535هـ ضربت مجاعة، الأمر الذي دفع بضعاغ الناس من الجوعى الالتفاف حول شيخ " أبو حفص" الذي كان يقدم لهم صيد البحر الذي يصيده بنفسه في كل يوم واستمر في إطعام من حوله حتى رفعت الغمة والشدة عن الناس³⁷.

وإلى جانب السمك الذي كان غذاء جيدا زمن القحط لجئ الناس إلى حيوانات برمائية على رأسها السلاحف حيث عُدَّ غذاء جيدا لجئ إليه الشيخ "عبد السلام التونسي"³⁸، كما كانت طيور البحرية مثل اللمط و طائر الكركي متواجدة قرب شواطئ مصدرا غذائيا جيدا زمن الشدة³⁹. كما أقبل الناس على تناول حيوان برمائي معروف لديهم باسم الخردون، وعند البربر شائع عندهم باسم أفريم⁴⁰.

ومنهم من استدل على تناول الحيتان والأسماك بقوله أن لجوء سكان السواحل إلى تملح وتجفيف الأسماك والمنتجات البحرية، هدفه ادخارها والمحافظة عليها لأطول مدة ممكنة، لمواجهة مقبل الأيام وما تحمله معها من مجهول بما في ذلك المجاعات، ذلك أن طريقة المحافظة على الأسماك لمدة طويلة جدا والبحر أمامهم وخيره كثير، وتناول الأسماك طازجة في حينه أفضل من تلك المخزنة⁴¹.

خامسا: التحول نحو الأطعمة الشاذة والمقرزة

كثيرا ما كانت أبشع المجاعات والأوبئة الحاصلة في المجتمعات بفعل الصراعات السياسية حيث أفرزت مجاعات رهيبية، دفعت بسكان المغرب الإسلامي الإقبال على تناول أغذية أقل ما يقال عنها أنها مقرزة للغاية تتنافى وسلوكهم الغذائي الطيب، وإن كانت محنة مدينة بلنسية الأندلسية بعيدة زمنا ومكانيا عن مجال الدراسة، إلا أنها تعطينا فكرة عما حدث بها سنة 487هـ، فقد أكل الناس جلود الحيوانات و الهوام، والأصماغ⁴².

يعد الحصار الطويل لتلمسان حاضرة المغرب الأوسط، من أشهر الحصار الطويلة حيث أهلك الكبير والصغير ونال الناس ضيق شديد ومجاعة لم يرى مثلها في تاريخ البشرية، ما

إضطر الناس لتكيف مع نظام غذائي غريب عن عاداتهم، فأقبلوا على الشحوم والتي وصل سعرها في حوالي عشرين درهما، و على جلود الأبقار ومختلف الدواب التي بيعت هي الأخرى بثلاثين درهما⁴³، كما أقبلوا على أكل خسيس الحيوان من شدة الجوع وقسوة الحصار فقد أجبر الناس لأكل لحم الكلاب والقطط والفأران لإسكات جوعهم الرهيب الأمر وأصبحت من أغذية المرفهين التي تزين مواعدهم، فرطل لحم الكلب والقط بلغ مثقالا ونصف، ولحم الفأر بعشر دراهم⁴⁴. كما أجبر سكان تلمسان على إدخال في نظام غذائهم لحم الحيات، التي بلغ سعر لحمها عشرة دراهم⁴⁵، وهذا ما فعله أهل برقة الذين هلك منهم خلق الكثير، حينما تناولوها بسبب المجاعة التي أصيبوا بها سنة 706هـ / 1306م، فعاد عليهم سمها فدفعوا الثمن غاليا⁴⁶. وأصبحت لحوم الجيف لمختلف الدواب طعام الكثير من المحصورين في تلمسان إلى جانب أشلاء موتاهم وهو تغير خطير في سلوكهم الغذائي⁴⁷، كما تغذى سكان تلمسان أثناء محنة الحصار على القشريات السامة أهمها العقارب وكذا الضفادع والحشرات وهي واحدة من أهم التغيرات السلوكية الغذائية التي أجبروا على تناولها⁴⁸.

الأمر نفسه كان قد حل بأهالي مكناس إبان محاولة الموحدين الاستيلاء عليها، ففرضوا عليها حصارا مطبقا دام سبع سنوات ونصف، حيث ذهب الآلاف من سكانها ضحايا الجوع، وأكل أهلها خسيس الحيوان حتى تم فقده من المدينة كلها⁴⁹.

سادسا: نظام الغذاء زمن الأوبئة

إن الأوبئة والطواعين من أشد الأمراض بمنطقة المغرب الإسلامي، وكانت أشد وطئا على الناس من غيرها، فكانت تظهر على كل رأس عشر سنوات، أو خمسة عشرة سنة، أو

عشرين سنة تقريبا⁵⁰، وتجدر الإشارة أن الإصابة بالوباء تختلف بحسب طبقات فئات المجتمع وأجناسهم وأعمارهم، وتعد الطبقات المستضعفة الأكثر عرضة للإصابة لعدة أسباب منها سلوكهم ونظام الغذائي⁵¹، فاجتمعات التي يغلب عليها التغذية بالفواكه الرطبة والأغذية سريعة التحول كالأسماك والحيتان والألبان، والتزود من مصادر مياه كبريتية أو حارة أو من الأثمار والأودية تكون أكثر قابلية لاستقبال الوباء واحتضانه⁵².

وجه الأطباء في بلاد المغرب الإسلامي عامة الناس بآتباع جملة من الشروط الوقائية، أهمها حمية غذائية تلائم ظروف المنطقة وتراعي فصول السنة⁵³، ونصحوا التغذي في فصل الربيع على أغذية خفيفة ومعتدلة، وتجنب الأغذية الرطبة وهي أغذية نباتية وحيوانية إلى جانب الترويح عن النفس بعبور نباتية⁵⁴. أما في فصل الصيف فقد نصح الأطباء بتجنب الأغذية سريعة التحول⁵⁵. أما في فصل الخريف فيفضل تناول أغذية تتميز بالحرارة والرطوبة، وتجنب الأغذية ما كان بطبعها باردا، كما نصحوا بالطيب في هذا الفصل الذي هو غذاء الروح⁵⁶. أما في فصل الشتاء يفضل الأطباء نظام غذائي يعتمد على الأغذية اليابسة، ونصحوا التقليل من بعض الأغذية الأخرى التي لا تتناسب وطبيعة الفصل، بالإضافة إلى استعمال أنواع الطيب الحارة كغذاء لروح⁵⁷.

خاتمة

أسهم موضوع دراستنا في الكشف عن حقائق اجتماعية زمن الأوبئة والمجاعات، وتأثيرها على سلوكيات الغذائية للفرد والجماعة بالمغرب الإسلامي.

إن تقلبات المناخية المندرة بحلول الحفاف دفعت بالناس إلى إتباع سلوك ونظام غذائي في استهلاك زروعهم قبل أوان حصاده، لكنه ليس محل عملي أمام طول زمن الجماعات والقحط، كما أن تلك الزروع تفقد قيمتها الغذائية وتبقى ناقصة لتلبية حاجيات السكان. إن الأوبئة والجماعات تدفع بالفئات الضعيفة من المجتمع، إلى سلوك سلوكيات قاهرة تسبب مشاكل اجتماعية أهمها ظاهرة استئدانة الأطعمة غالبا ما تكون فاسدة لتعينهم على محنة الجوع، مقابل رهن ممتلكاتهم، وغالبا ما ينتهي الأمر بالدائن إلى الاستحواذ على رهن الدائنين لعجزهم عن السداد.

يعد الخبز أهم ركيزة في نظام الغذاء لدى سكان المغرب الإسلامي، وحين يغيب هذا المصدر المهم زمن الأوبئة والجماعات، كان السكان يجدون البديل في نباتات البرية لصناعة خبز بديل أقل جودة من خبز الحنطة، إلا أنه شكل ركيزة في نظام غذائهم لا يستهان به في مقاومة الجوع.

لقد ظل البحر في منأى عن التغيرات الصعبة التي شهدها البر زمن الأوبئة والجماعات، لذا لجأ سكان المناطق الساحلية لبلاد المغرب الإسلامي لصيد البحر والخلجان والوديان، وشكلت تلك الأغذية البحرية ملاذا آمنا في نظامهم سلوكهم الغذائي.

إن الصراعات السياسية التي اتسمت بها منطقة المغرب الإسلامي خلال حقبة الدراسة، أفرزت مجاعات رهيبية من حيث طول المدة الزمنية، الأمر الذي هدم لناس نظامهم الغذائي المعتاد، وشهد تحولا سلوكيا خطيرا المتطرفا وشادا لا يمكن وصفها إلا بالأغذية المفترزة، والتي اضطرت الناس إليها اضطرارا.

لقد تمكن أطباء المغرب الإسلامي من وضع نظام غذائي وقائي لتفادي وقوع الأوبئة والطواعين الفتاكة، ونظام غذائي آخر يلتزم به زمن الأوبئة للحد من العدوى، ولقد ركز الأطباء في نظمهم الغذائية الموصى بها على الجانب المعنوي والجانب الروحي، إضافة لذلك نصحوا السكان بعدم إدخال بعض الأغذية في نظام تغذيتهم في أوقات معينة من السنة.

الهوامش

- 1- أبو العباس الونشريسي، المعيار العرب وجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي وآخرون، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ، ص 39.
- 2- نفسه، ج 6، ص 44.
- 3- إبراهيم القادري بوتشيش، ظاهرة الدين والسلف خلال العصر الوسيط، ط 1، دار الطليعة، بيروت، 2006م، ص - ص 35، 36.
- 4- أبو زكريا المازوني، الدرر المكونة في نوازل مازونة، م 2، رقم 1336، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، ورقة 41 ب.
- 5- أبو زكريا المازوني، المصدر السابق، ورقة 41 ب.
- 6- تكملة لنص النازلة: ".وقد علمتم ما مات في هذه السنة من الخلق بالجو، وتقلدون القول بذلك وترجحونه على المشهور لقلة مواساة الناس وإهمال أحوال الضعفاء والمساكين. فأجاب بقوله: سلف اليباس والمبلول جائز وقد أخذ من قوله في المدونة في تسليم الزرع ليحصده ويدرسه وكان شيخنا الإمام ابن عرفة يفتي به ويعتل بأنه لو باعه وأسلم ثمنه لكان أكثر من سلفه إنما هو محض منفعة للمتسلف، وبهذا أقول إذا بلغ المال إلى ما ذكرت، وإن كنت أستحسن أنه يستلف وينوي الدافع أنه أتاه قبله، فيكون إذا أعطاه جديدا خمس قضاء ويخرج من الخلاف، وإن أبي إلا الشرط فهذه ضرورة تبيح المخطور." ينظر: نفسه، ورقة 41 أ.
- 7- أبو العباس الونشريسي، المصدر نفسه، ج 5، ص 100، ص 102.
- 8- عبد الرحمان بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي شأن الأكبر، تح: سهيل زكار، ج 6، بط، دار الفكر، بيروت، 1421هـ، ص 593. / ينظر: البياض عبد

- المهادي، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك ودهنيات الإنسان في المغرب و الأندلس ق 6هـ - 8هـ، ط1، دار الطليعة لطباعة والنشر، بيروت، 2008م، ص 181.
- 9- عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح: سهيل زكار، بط، دار الفكر، بيروت، 1421هـ، ص 453.
- 10- أبي سمرا مروان، فرنان برودويل مؤرخ المتوسط والعالم المتوسطي، بط، بت، ص 187.
- 11- إبراهيم عبد الكريم، مائدة الفقراء في " بر الهمامة " خلال النصف الأول من القرن 20م جدلية الخصب والجدب مقاربة أنثربولوجية، مجلة الثقافة الشعبية، ع: 29، مؤسسة العربية لطباعة والنشر، البحرين، 2005م، ص 80.
- 12- شجرة البلوط: شجرة برية أصل موطنها الجبال، قيل عنها أنها تثمر سنة بلوطا وسنة عفصا، قال عنها ابن البيطار في كتابه الجامع: " البلوط كثير الغذاء، وتغذى عليه الناس قديما لوحده، وهو ثقيل على المعدة يسبب عسر الهضم، وأجوده يسمى شاه البلوط، ويستعمل كدواء لعدة أمراض". ينظر: شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كمال سليمان الجبوري، ج 20، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، ص 180. / ينظر: ضياء الدين ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ، ص - ص 151، 152.
- 13- أبو يعقوب ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد توفيق، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم، الرباط، 1404هـ، ص 215.
- 14- شجر الخروب: يعرف في بلاد الشام بالخرنوب، يهتم بخدمته الفلاحون، وتوجد منه عدة أصناف أشهرها الصيدلاني والشابوني، يتميز بجلاوته وكثرة عسله الذي يستخدم في صنع الحلويات، وثمره غليظ وعريض ذو لون صندلي، أما البري فهو رديء وقرونه رقيقة، لا طعم له و ليس به حلاوة، ترعى عليه الماعز، موطنه المرتفعات والجبال، ورقه لا يتساقط، له عدة أسماء منها شجرة سليمان، يعتبر من النباتات الصيدلية والطبية، ينظر: ابن البيطار، المصدر نفسه، ج2، ص 317. / ينظر: أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تح: محمد العربي الخطابي، م1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990م، ص 207.
- 15- حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ، ص- ص 431، 432.
- 16- ثمار النبق: أصله شجرة السدر الشوكية، ذات الأوراق الإبرية، وهو نوعان السدر الضال البعيد عن الوديان الذي تسميه العرب الدوم لقصر طول شجره، والقريب من الوديان فهو الغري طويل قامة، يتميز

- خشبه بالخفة، وأجود النبق الذي يتميز بحلاوة مذاقه، ورائحته الزكية التي تنبعث من آكله، ذو لون أحمر مائل لسواد في حجم حبة الحمص أو أكبر، ويسمى أجودها البهجر، يعتبر من نباتات طبية وصيدلية. ينظر: ابن البيطار، المصدر نفسه، ج3، ص- ص 6، 7. ينظر: أبو الخير الإشبيلي، المصدر نفسه، م2، ص 605.
- 17- نبات الشليم: هو الزوان الذي يكون بالحنطة فيفسدها، ورقه شديد الخضرة يشبه ورق " الخلاف النبطي"، يتغذى عليه الناس مادام رطبا، لا مرارة فيه، وهو يشبه نبات الزرع، في أعلى قصبته سنابله التي تحمل بذوره، شبيهة بالدخن، وأجوده ما كانت بذوره خفيفة لزجة عند مضغها، لوها حمراء، ويسمى أيضا القيساطه، ويستعمل كدواء. ينظر: ابن البيطار، المصدر نفسه، ج3، ص 99. ينظر: أبو الخير الإشبيلي، المصدر نفسه، م2، ص- ص 805، 806.
- 18- نبات الطهيف: عبارة عن نبات ذو شوك وأوراقه تشبه أوراق نبات الدخن، ثماره رقيقة لا تكاد ترى إلا إذا كانت مجتمعة، لوها أحمر، وقال بعضهم أنها نبات الذرة. ينظر: ابن البيطار، المصدر نفسه، ج3، ص 141.
- 19- أبو الخير الإشبيلي، المصدر نفسه، م1، ص 379.
- 20- القيساطة: أرق أوراقا وأغصانا، تعرف بدخن العصافير، ومعروفة لدى أصحاب البادية. ينظر: نفسه، ص 710.
- 21- نبات الدخن: يعد هذا النبات من أجناس الحبوب، شبيه بنبات الجوارس الذي هو الآخر يصنع منه الخبز، ويقشر كما يقشر الأرز، وعموما هو نبات تستهلك حتى سيقانه، ويعد نباتا طبيا. ينظر: ابن البيطار، المصدر نفسه، ج2، ص 368.
- 22- عبد الهادي البياض، المرجع نفسه، ص 183.
- 23- بقلة الدعاع: نبات ينمو على وجه سطح الأرض، يتميز ببذوره ذات اللون الأسود، تنمو في وسطه براعم صغيرة، ينمو بين التخوم الزروع. ينظر: أبو الخير الإشبيلي، المصدر نفسه، م1، ص 232.
- 24- نبات استب: أنواعه كثيرة، أشهرها الذي يتميز بأوراق تشبه الزيتون ظاهرها لونه مائل لسواد، يعلوا قدر القامة، يزهر أزهارا تشبه الشقائق، يثمر بدورا لوها مابين الخضرة والأصهب، حجمها أصغر من الخردل، تسمى الجللجل، ينبت في الأحاديث. ينظر: نفسه، ص- ص 81، 82. ينظر: عبد الهادي البياض، المرجع نفسه، ص 183.
- 25- نبات التابودة: هو نبات ينتج ثمار تشبه الدرنات، قشرها سوداء اللون، تجفف وتسحق ليتم الحصول على حنطتها. ينظر: إبراهيم عبد الكريم، المرجع نفسه، ص 81. ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب

في أخبار الأندلس و المغرب، تح: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ، ص- ص 325، 326.

26- محمد الأمين بزاز، حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب، ع: 28، الرباط، 1993م، ص101.

27-Rosenberg, « cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc – XV/XVIIIe siècle – Annales, E.S.C, 35 année, n 34, Mai- Aout 1980, p494.»

28- ابن الزيات، المصدر نفسه، ص- ص، 261، 265.

29- نفسه، ص- ص 418، 419.

30- نبات عقمار: يبلغ طوله القامة في زمن الربيع، ورقه يشبه ورق الحسك، كثيف الأغصان ولونه أخضر مائل للصفرة، له ثمار مدرحة الشكل، منابته في قمم الجبال الباردة. ينظر: أبو الخير الاشبيلي، المصدر نفسه، م2، ص- ص 443، 444.

31- نفسه، ص 422.

32- ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: عبد المجيد تركي، بط، السدار التونسية للنشر، تونس، 1968م، ص-ص 141، 142.

33- نبات النارنج: يعد من الأشجار المعروفة، تتميز بأوراقها المساء شديدة الخضرة، ثمارها مدورة الشكل مثل الأترج حامضة المذاق، تزهر أزهارا بيضاء اللون. ينظر: ابن البيطار، المصدر نفسه، ج4، ص 470.

34- ابن عذارى المراكشي، المصدر نفسه، ج5، ص 325.

35- أحمد بن عبد الرؤوف، ثلاثة رسائل في الحسبة، جمع يروفتصال، بط، ب دار نشر، القاهرة، 1955م، ص 97.

36- الحسن الوزان، المصدر نفسه، ج1، ص 327.

37- أبو حفص: هو عمر بن معاد الصنهاجي، المكنى بـ: أبو حفص ولد في قرية إفغل، الواقعة قرب مدينة أزموور، كان والده ملازما وصاحباً لشيخ أبي شعيب السارية، عرف عن أبي حفص العلم والعمل به، كثير الاعتزال والخلوة في البراري، توفي سنة 561هـ. ينظر: ابن الزيات، المصدر نفسه، ص 183.

38- عبد السلام التونسي: ولد في تونس، ونزل تلمسان، كان عالماً زاهداً لا يخاف في الله لومته، وكانت له مناظرات ودروس في مسجد تلمسان، توفي الشيخ بتلمسان ودفن بقرية العباد. ينظر: نفسه، ص - ص 110، 112.

- 39- العمري، المصدر نفسه، ص 129/. ينظر: إبن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طبيبات الطعام والألوان، تح: محمد بن شقرون، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص99.
- 40- أبي عبد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا و المغرب، بط، دار الكتب الإسلامي القاهرة، ب ت، ص148.
- 41- حسن الوزان، المصدر نفسه، ج1، ص- ص 124، 126/. ينظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج2، بط، دار الصادر، بيروت، 1397هـ، ص 61/. ينظر: تقي الدين المقرئزي، خطط المقرئزي، ج2، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987م، ص173.
- 42- ابن عذارى المراكشي، المصدر نفسه، ج4، ص 33، ص- ص 38،39.
- 43- ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص- ص 127، 129.
- 44- نفسه، ص 128/. ينظر: ابن الوليد إسماعيل ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، تح: عبد الوهاب منصور، بط، المطبعة الملكية، الرباط، 1423هـ، ص61.
- 45- ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص 128.
- 46- أبو محمد التجاني، رحلة التجاني، تح: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، بط، ليبيا- تونس، 1981م، ص 191.
- 47- ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص 128/. ينظر: ابن الوليد ابن الأحمر، المصدر نفسه، ص61.
- 48- ابن الأحمر، المصدر نفسه، ص 61/. ينظر: خالد بلعربي، المجاعات و الأوبئة بتلمسان في العهد الزياني (698هـ-845هـ/1299م-1442م)، دورية كان التاريخية ، ع: 04، الكويت، 2009م، ص22.
- 49- محمد ابن الغازي، الروض الهمتون في أخبار مكناسة الزيتون، تح: عبد الوهاب إبن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1408هـ، ص 21، ص 25.
- 50- الحسن الوزان، المصدر نفسه، ج1، ص 68.
- 51- لسان الدين إبن الخطيب، مقنعة السائل عن المرض الهائل، منشورات المعهد العلوم العربية الإسلامية، فرانكفوت، 1417هـ/ 1997م، مج 93، ص- ص 47،48.
- 52- محمد العربي الخطابي ، الطب و الأطباء في الأندلس الإسلامية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص 176.

- 53- سعيد بنحمادة، الماء والإنسان في الأندلس خلال القرن 7هـ - 8هـ / 13م - 14م، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2007م، ص 223.
- 54- أبو العباس المغيلي، تأليف في الطب، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 1767، ورقة 1 أ.
- 55- نفسه، ورقة 1 ب، ورقة 2 أ.
- 56- نفسه، ورقة 2 أ، ورقة 2 ب.
- 57- نفسه، ورقة 2 أ، ورقة 2 ب.